

الأبعاد التاريخية والخصائص الفنية في قصيدة (عندما تحكى العربية) للشاعر عبد القادر محمد أبيه

(دراسة وصفية تحليلية)

د. آدم محمد آدم القاضي

محاضر بالمعهد العالي لإعداد المعلمين ببنغور-تشاد

د. محمد الصغير محمد عبد الواحد

محاضر بالمعهد العالي لإعداد المعلمين بانجمينا-تشاد

مستخلص البحث:

هذه الورقة البحثية التي تناولت قصيدة من قصائد الشعر التشادي العربي المعاصر وهي قصيدة (عند ما تحكى العربية)، وموضوعها هو تاريخ اللغة العربية، ونشأتها ومعاناتها، وتطورها وازدهارها في بلاد تشاد منذ عصر الممالك الثلاث إلى فترة الاستعمار ثم في الحكومات المتعاقبة على البلاد.

وهذا البحث عند تعرضه لقصيدة في هذا الموضوع يهدف إلى الكشف عن موطن اللغة العربية، التي نشأت فيه، ولذلك عوامل وحدتها، وانتشارها، ونزول القرآن الكريم بها، مما جعلها لغة عامة لجميع القبائل العربية، ثم تهدف الدراسة إلى العوامل المساعدة لدخول العربية في تشاد وعوامل انتشارها المتمثلة في انتشار الإسلام، والتعليم الديني، كما يهدف إلي الكشف بأنها كانت اللغة الرسمية لجميع الممالك التشادية القديمة (كانم-وباقرمي- ووداي)، وبذلك صارت أرتا يعكس الأصالة والهوية الدينية والعربية كما يسعى البحث عن كشف المحاولات التي عاشتها اللغة العربية آبان الاستعمار وكيد المستعمر لها.

وتهدف الدراسة أيضا إلى متابعة أوضاع اللغة العربية في مختلف الحكومات التشادية ودور الرؤساء في خدمتها وتطورها إلى أن وصلت إلي ما أصبحت عليه اليوم ومن خلال الصياغة، توصل البحث الى النتائج التالية:

القصيدة تعتبر إبرازا لشعر الحدائة في الأدب التشادي المعاصر.

تعكس القصيدة الأبعاد التاريخية والإبداعية والجمالية والآفاق المعرفية التي يتحلى بها الشاعر.
رسمت القصيدة مسافات اللغة العربية تاريخياً في الأقليم الواقع جنوب الصحراء الكبرى من القارة الأفريقية الذي يسمى (تشاد).
تعد قصيدة (عندما تحكي العربية) تاريخاً ورفضاً وتمرداً على الواقع الاجتماعي وموقف الشاعر من اللغة الفرنسية.

الملخص باللغة الإنجليزية:

This research paper dealt with a poem of contemporary Chadian Arab poetry, which is the poem (When You Speak Arabic), and its subject is the history of the Arabic language, its origins, suffering, development and prosperity in the country of Chad from the era of the Three Kingdoms to the colonial period and then in successive governments in the country.

This research, when it deals with a poem on this topic, aims to reveal the homeland of the Arabic language, in which it originated, and therefore the factors of its unity, its spread, and the revelation of the Holy Qur'an in it, which made it a general language for all Arab tribes. Then the study aims at the factors that helped the introduction of Arabic into Chad and the factors Its spread, represented by the spread of Islam and religious education, also aims to reveal that it was the official language of all the ancient Chadian kingdoms (Kanem, Baqarmi, and Ouday), and thus it became a legacy that reflects authenticity and religious and Arab identity. The research also seeks to reveal the attempts that the Arabic language experienced during colonialism. And the coloniser's plot against her.

The study also aims to follow up on the conditions of the Arabic language in various Chadian governments and the role of presidents in its service and development until it reached what it was today. Through formulation, the research reached the following results:

The poem is considered a highlight of modernist poetry in contemporary Chadian literature

The poem reflects the historical, creative, and aesthetic dimensions and cognitive horizons possessed by the poet.

The poem charted the Arabic language courses historically in the region located south of the Sahara on the African continent, which is called (Chad).

The poem (When You Speak Arabic) is a history, rejection, and rebellion against social reality and the poet's position on the French language.

The Arabic language contributed to the renaissance of the ancient Chadian Islamic kingdoms.

مقدمة:

بلاد تشاد، هي تلك المساحة الواقعة بين بلاد امتازت بلامحها العربية، ومناطق

تعكس سمات غير عربية، بوصفها ذات انعكاسات أفريقية زنجية.

وتعد تشاد جسرا رابطا بين تلك البلاد العربية، وتلك المساحات الأفريقية، ومن

البديهي أن تبرز التأثيرات الثقافية العربية والأفريقية في القطر التشادي، نتيجة للتماس

النتائج من التقاء الثقافتين والحضارتين العربية والأفريقية، وقد أسهمت العديد من العوامل

على انتشار الثقافة العربية على نطاق واسع، وضارب في أعماق التاريخ، بفعل الهجرات

المتتالية للقبائل العربية منذ فترات بعيدة، ويعد هذا من العوامل الاجتماعية التي ساعدت

على انتشار الإسلام واللغة العربية، (حيث ساعد على انتشار اللغة العربية هجرات

القبائل العربية إلى تلك البلاد، واستقرارهم بها، وخاصة بنو هلال، وبنو سليم منذ القرن

الخامس الهجري)^(١).

وكان للإسلام دور كبير في نقل اللغة العربية إلى تشاد، حيث أسهم في تطور

الحياة السياسية والاجتماعية والتعليمية والثقافية، في هذه الممالك التشادية، التي ازدهرت

(١) د. عبد الله مصطفى، مختارات من الأدب التشادي باللغة العربية تجمع الكتاب التشاديين،

انجمينا ٢٠٠٩م، ص ١٢.

وتطورت واشتهرت بفضل الإسلام، كما يقول توماس أرنولد في كتابه (الدعوة الإسلامية) فالإسلام هو الذي أمدَّ سكان أفريقيا بالعزة والكرامة والاعتماد على النفس واحترام الذات، عكس الأديان الأخرى^(٢).

وبالإسلام استطاعت الكيانات السياسية التي عرفتها أفريقيا جنوب الصحراء من الوصول إلى درجة عالية من الازدهار والتطور، وذلك من خلال اعتماد اللغة العربية لساناً ولغة رسمية، متداولة بين جميع أفراد المجتمع، كما أنها كانت لغة التعليم، حيث يقول فرانسيس مور في كتابه "رحلات إلى ربوع أفريقيا" (ففي كل بلد أفريقي توجد جماعة أغلبهم يتكلم اللغة العربية، كأنهم يتعلمونها في مساجدهم ومدارسهم، ولأن القرآن الكريم مصدر شريعتهم مكتوب بهذه اللغة)^(٣).

وعليه فإن اللغة العربية التي انتشرت في أوساط المجتمع التشادي، انطلاقاً من التراث الثقافي الذي خلفته الممالك الإسلامية التشادية، التي تعاقبت على المنطقة، وعلى الرغم من المكائد والمحاولات المفروضة لوقف سريان اللغة العربية، وانتشار الثقافة الإسلامية، تلك المحاولات التي قام بها المستعمر المحتل الفرنسي، وأملاها على السلطة التشادية التي سلمها مقاليد الحكم إبان استقلال البلاد عام ١٩٦٠م، والتي قامت بدورها على تهميش اللغة العربية، وإهمال التعليم العربي الديني، الذي يعد سلاحاً، استخدمه المجتمع التشادي، ضد الاستعمار وأتباعه من الموالين له، الذين عادوا اللغة العربية، باسم الكفاح ضد الثورة- والثوار، حيث كان يعد كل من يتقن اللغة العربية، ثورياً، ومناوئاً للنظام الحاكم في فترة الستينيات من القرن الماضي، ومن جراء ذلك لقي العديد من الرجال حتفهم، سواءً بالقتل المباشر، أو موت في الزنزانات تحت وطأة التعذيب

(٢) د. فضل كلود الدكو، الثقافة الإسلامية في تشاد في العصر الذهبي في إمبراطورية كانم،

منشورات كلية الدعوة الإسلامية ط، ط١، ١٩٨٨م، ص ١٢٢.

(٣) تأثير الفصحى على لهجة شاري باقرمي، بحث لنيل درجة التمكن، جامعة انجينا، إعداد

هارون عبد الله أحمد، ص ١٢.

والتكامل، بسبب اللغة العربية، ورغم كل ذلك، تمكنت اللغة العربية من الثبات، والانتشار وظلت حية، في دور التعليم والمساجد، والخلوي القرآنية، وحلقات التعليم الديني في دور العبادة، أو في منازل العلماء، واتخذت اللغة العربية من اللهجة العامية المنبثقة منها، قاعدة ثابتة لانتشارها في أوساط أمة متباينة، اللغات واللهجات، ولكن العربية صار من أهم عناصرها وحدة الأمة التشادية وهذا (دليل قانع على ان عملية التماس اللغون، لا تمنعها حدود جغرافية أو عرقية أو اجتماعية من فرض قوانينها على لغة ما)^(٤).

وقد قيض الله سبحانه وتعالى رجالاً، أسهموا في نشر اللغة العربية، سواءً من المشايخ والعلماء، والمعلمين ومن رجال الثورة والمتقنين، ومن القادة والرؤساء والملوك ثم المؤسسات والمنظمات الإسلامية- والدول العربية.

التعريف بالشاعر

المولد والنشأة

ولد الشاعر عبد القادر محمد أبيه في مدينة (فورت لامي) انجمينا حالياً بتاريخ ١١/١/١٩٦٥م عبد القادر محمد آدم نصر ولقبه الجبلاني واشتهر بلقب أبيه الذي كان يسمى محمد أبيه.

تربي عبد القادر يتيماً، حيث قتل أباه في سجون حكومة (تمبلباي) ويعد هو آخر الابناء بين اخوته البالغ عددهم ثمانية من الأولاد وبنت واحدة.

اهتمت والدته بتربيته فلم يشعر بألم اليتيم، ثم تكفل أخوه الكبير (الترمذي محمد أبيه)، بالناية به وأرسله الى الخلوّة القرآنية عند سن الخامسة، ولم يبلغ السادسة، تم تسجيله بمدرسة الجامع الكبير التي صارت ابتدائية الملك فيصل فيما بعد وكان ذلك عام ١٩٧٣م ونال الشهادة الابتدائية عام ١٩٧٨م والتحق بالقسم الاعدادى، ولكن الحرب الأهلية التي بدأت عام ١٩٧٨م لم تساعده على مواصلة الدراسة الا في عام ١٩٨٠م ونال الاعدادية من مركز الملك فيصل عام ١٩٨٣م والتحق بالقسم الثانوي، وبعد قرار

(٤) المجلة العربية للدراسات اللغوية، ص ١٧٧. العدد ٤٦، ١ نوفمبر ١٩٩٩م علم اللغة.

الحكومة بإجراء الشهادة الثانوية العربية عام ١٩٨٧م كان من الرعيل الأول الذي نال الثانوية بالقسم العربي والتحق بجامعة تشاد كلية الآداب والعلوم الانسانية عام ١٩٨٨م وتخرج فيها عام ١٩٩٠م حائزا على شهادة الاجازة، وتم توظيفه واشتغل في مهنة التدريس في عدة مدارس بالعاصمة، ثم التحق بالمعهد العالي للعلوم التربوية، وتم تأهيله مدرسا للقسم الثانوي، ومارس التدريس في العديد من المدارس منها المعهد العلمي الاسلامي أم (سيوقو) بأبشة.

وتم تعيينه ناظرا للقسم الثانوي بالمعهد الاسلامي بأنجمينا، وبعد ست سنوات تم تعيينه مديرا للمعهد، وفي عام ٢٠١٠م نجح في مسابقة الاشراف التربوي في ليبيا في جامعة (سبها) بكلية الآداب قسم التربية وعلم النفس، وناقش درجة الماجستير في التربية وتم نقله الى الادارة، فعمل في ادارة الثنائية اللغوية بوزارة التربية الوطنية، ثم تم نقله إلى المركز الوطني للمناهج الذي مازال يعمل فيه، ظهرت شاعريته إبان الحرب الأهلية حيث نظم بعض القصائد ومارس التمثيل، وبرع فيه وفي نظم الشعر – له ديوان يسمى (إعصار في فؤاد) – (ثم عالية وغالية) – (ثم ديوان عندما تحكي العربية). وفي المجال النثري له العديد من القصص القصيرة مثل (مجموعة تاجر البصل) – ثم (درة بلاد الصابرين) وغيرها.

يعد عبد القادر من الشعراء المجيدين، واتجاهه اتجاها اجتماعيا حيث صاغ العديد من القصائد التي تعكس الواقع الوطني والاجتماعي المرير تبرز الثورة والرقص والتمرد في شعره.

المبحث الأول

اطلالة اللغة العربية على بلاد تشاد

عرفت المنطقة الواقعة جنوب الصحراء الكبرى، التي عرفت في التاريخ القديم بالسودان الأوسط، وهو جزء من إقليم السودان الغربي، أو غرب أفريقيا، وعرف أيضاً بأفريقيا جنوب الصحراء، وهذه كلها تسميات واصطلاحات أطلقها الكتاب العرب واستعملها أيضاً الكتاب الغربيون، وحدود هذه المنطقة تبدأ من بحيرة تشاد.

ومع انتشار القبائل الوافدة، الي حول شواطئ بحيرة تشاد حيث استقرت فيها، وامتزج بعضها ببعض، بما فيها القبائل العربية الوافدة إلى البلاد، إما طلباً للرزق أو التجارة، أو لنشر الثقافة الإسلامية والدين الحنيف، ومع دخول الإسلام وانتشاره في أوساط هذه المملكة، انتشرت اللغة العربية، ولم تبلغ (كانم) ما بلغته من قوة وعظمة وعمر طويل إلا بعد أن صارت دولة إسلامية، فقد أضحى الدين الإسلامي بثقافته الراقية عصب قوتها الروحية والمادية، كما صارت اللغة العربية هي اللغة الرسمية في شتى مناحي الحياة، من نظم الحكم والإدارة والاقتصاد والثقافة والعلوم والفنون^(٥).

وبجانب ذلك أضحت اللغة العربية لغة التواصل والتخاطب والمعاهدات بين (كانم) والدول الإسلامية المعاصرة لها.

فسرّ تطور (كانم) وازدهارها ورفيها مرتبط ارتباطاً مباشراً بانتشار الدين الإسلامي، واعتماد اللغة العربية- لغة رسمية للدولة والمجتمع، ويعكس ذلك صحة قول بعض المؤرخين الغربيين حين قال: (بالإسلام يبدأ السر التاريخي لأفريقيا السوداء)^(٦)، المقصود به البلاد الأفريقية الواقعة جنوب الصحراء الكبرى.

وبهذه البلاد التي تطورت وازدهرت بفضل الديانة الإسلامية، والثقافة العربية- وانتشار اللغة العربية الذي بلغت شأواً بعيداً ومقاماً رفيعاً، حتى أدى إلى ظهور الشعر العربي في تشاد، على يد الشاعر الأسود أبي إسحاق إبراهيم بن يعقوب الكانمي، الذي

^(٥) د. فضل كلود الدكوي، الثقافة الإسلامية في تشاد في العصر الذهبي لإمبراطورية كانم،

منشورات كلية الدعوة الإسلامية ١٩٩٨م، ص ٣٢.

^(٦) Gouille, Ail islam Sans L'frisque Occidental Française. P.430 Paris 1952.

ولد قبيل عام ٥٥٠ هـ حيث أشار إليه الرحالة يقوب الحموي في كتابه "معجم البلدان" بقوله: (وفي زماننا هذا شاعر بمراكش المغرب يقال له الكانمي، مشهود له بالإجادة، ولم أشهد شيئاً من شعره ولا عرفت اسمه)^(٧).

فالشاعر إبراهيم الكانمي ولد بقرية (بلمة) وهي واحة مشهورة فيها من نخيل وملح، وكانت تقع في طريق القوافل، وهي في بلاد تشاد. وبلاد كانم من أقدم بلاد السودان دخولاً في الإسلام، ومن أقدمها إقبالاً إلى التعليم)^(٨).

وانطلاقاً من هذه الحقائق التاريخية، التي تعكس الواقع الحقيقي، لانتشار اللغة العربية في الأقاليم التشادية قديماً، ارتكز عليها الشاعر في قصيدته، تلك لأنها تمثل المحور الأساسي، والدعامة الركيزة التي صبغت بلاد تشاد، بصيغة اللغة العربية، لذلك بدأ بها الشاعر تدعيماً للحقائق التاريخية، وتوظيفاً لها في خدمة النص الشعري، الذي تمكن الشاعر فيه من التوازن بين التاريخ في واقعه الثابت، وبين استغلال الحقائق التاريخية في بناء النص الشعري، والتصوير الفني، لواقع اللغة العربية في بلاد تشاد^(٩).

ونظراً لتغلغل اللغة العربية في الذات الشاعرة، والإحساس العميق بأوضاع اللغة العربية في بلاد تشاد، وكذلك التشبع بهذه اللغة المميزة - صارت الذات الشاعرة، بمثابة مستقبل عاكس لفضاءات اللغة العربية، عندما حكى عن نفسها - وماهيتها، ومهداها الأول وعوامل قوتها وانتشارها ومعاناتها، وفترات عزها ومجدها الغابر. ثم صمودها وسريانها بصمت وقوة، إلى لحظات انبعاثها بكل قوة في المجتمع التشادي المعاصر.

أَرْضُ تَشَادَ أَعْرَفُهَا *** مَنْذُ الشَّاعِرِ الْأَسْوَدِ
بِكَانِمٍ فِي دَوَاوِينِ *** وَمَجْلِسِهِمْ كَدَا الْمَسْجِدِ
وَدُورِ الْعِلْمِ تَعْرِفُنِي *** وَكُنْتُ لِسَائِهَا الْأَوْحَادِ

(٧) ياقوت الحموي، معجم البلدان، المكتبة العلمية - بيروت - لبنان، ط ١، ص ٤٩٠.

(٨) محمد بن شريفة، إبراهيم الكانمي أنموذج التواصل الثقافي بين المغرب وبلاد السودان - الرباط، ص ١٧.

(٩) عندما تحكى العربية، عبد القادر محمد أبيه، طباعة تشاد جرافيك للطباعة والنشر والتوزيع، ٢٠١٥م، ص ٨.

وَكُنْتُ ذَلِيلَهَا الْهَادِي *** وَكُنْتُ رَبَّاطَهَا الْمُفْرَد
وَكُنْتُ حَصَاةً أَبْنِي *** شَرِيْعَتَهَا إِلَى الْأَمْجَد
وَكُنْتُ النِّعَمَ فِي النَّادِي *** وَشَاعِرُهُمْ بِهَا غَرْد

وانطلاقاً من هذه الإطلالة الطيبة، ودورها الذي قدمته للمجتمع الكانمي، حتى ارتقى وازدهر، حيث كانت اللغة العربية لغة العبادة، والتدين (وارتباط اللغة العربية بالأديان كان سبباً في الحفاظ على اللغة وإحيائها، فقد حافظ الدين الإسلامي على العربية فترة زمنية طويلة)^(١٠) وهذا ما جعل اللغة العربية تمتاز بخصوصية جعلتها تختلف عن بقية لغات العالم من جهة، وجعلت التغيير يخضع لقوانين غير لغوية من جهة أخرى، وتلك الخصوصية هي ارتباط اللغة العربية بالدين، مما جعلها لغة حياة ودين يستخدمها أهلها في حياتهم اليومية، كما تستخدم شعوب العالم لغاتها الخاصة بها، ويستخدمونها أيضاً عندما يقرأون القرآن، أو يؤدون الصلاة، إذ لا يطلق لفظ القرآن إلا على المدون بين دفتي المصحف باللغة العربية)^(١١) وهذا ما أشار إليه الشاعر في القصيدة بقوله:

بِكَانِيَمٍ فِي دَوَاوِينِ *** وَمَجْلِسُهُمْ كَذَا الْمَسْجِدِ

واللغة العربية كما ورد في القصيدة، التي تستمد أفكارها من الحقائق التاريخية، إنها لغة التعليم في بلاد كانم. وما جاء بعدها من ممالك تشادية مثل مملكة (باقرمي)، ومملكة (وداي).

وقد أدت اللغة العربية عبر التعليم دوراً مهماً في نشر الوعي وترسيخ الثقافة العربية الإسلامية في أوساط المجتمع المسلم، حيث إن اعتناق الدين الإسلامي يحث المسلم على معرفة أمور دينه، بل يجعل ذلك فرضاً وواجباً عليه يقول النبي صلى الله عليه وسلم، (طلب العلم فريضة على كل مسلم) فلذلك يندفع المسلمون إلى الإمام بأمر الدين، وتعلم القرآن الكريم، ثم التقصي في الأمور الفقهية، والعبادات وكل هذه العلوم يتم

(١٠) د. عبد الواحد وافي، اللغة والمجتمع، مطابع سحر، ١٩٨٣م، ص ٨٧.

(١١) د. عبد الله عبد الحميد، د. عبد الله علي مصطفى، مطابع الوحدة العربية الزاوية، ط ١،

تعليمها باللغة العربية. ومن المسلم به أن تنتشر الخلاوي القرآنية والحلقات العلمية الدينية وإلي ذلك أشار الشاعر^(١٢):

وَدُورُ الْعِلْمِ تَعْرِفُنِي *** وَكُنْتُ لِسَانِهَا الْأَوْحَادِ
وَكُنْتُ دَلِيلَهَا الْهَادِي *** وَكُنْتُ رَبَّاطَهَا الْمُفْرَدِ
وَكُنْتُ حَضَارَةَ أَبْنِي *** شَرِيْعَتَهَا إِلَى الْأَمَجَدِ
وَكُنْتُ النِّعَمَ فِي النَّادِي *** وَشَاعِرُهُمْ بِهَا غَرْدِ

فاللغة العربية هي من أهم الروابط في مملكة كانم، العاملة على وحدة الجماعة، ووحدة المجتمع، بحيث أشار إليها الشاعر بقوله: (وكننت رباطها المفرد) أي الرابط الأساسي لهذه الجماعة، المتباينة الأعراف والأجناس والأعراق، والمختلفة القبائل، مما يعني اختلاف الألسنة واللغات، فصارت اللغة العربية هي القاسم المشترك الذي يجمع شمل وشتات هذه الأمة، وقد وصلت اللغة العربية إلى مستوى رفيع من التأثير، تعدى مستوى التوظيف في المجال الاجتماعي والديني والاقتصادي، حتى وصل إلى مرتبة الانتاج باللغة العربية، وهذا يعكس حقيقة سياق القصيدة حيث إن (الأفارقة قد عملوا على انتشار العربية) ومقابل الأخذ الثقافي الذي استقبله الأفارقة فقد اسهموا بدورهم في إثراء الثقافة العربية والحفاظ عليها في الأدب الأفريقي المتداول، والمنشور، إنما هو وجه آخر للأدب العربي... ولم يكن من الممكن أن نشاهد هذا النتاج الغزير في أفريقيا لولا تأصل اللغة العربية في حياة المجتمعات الأفريقية^(١٣).

وقد ظهر هذا في الطاقات الإبداعية الريادية التي قام بها الشاعر إبراهيم الكانمي، الذي غرس دوحه الشعر التشادي منذ القرن الخامس الهجري في مملكة كانم التشادية، بفضل تشعبه من اللغة العربية والشعر العربي، ويعكس ذلك دلالة مكانة اللغة العربية في إقليم تشاد قديماً. الذي أضحى بفعل الاستمرار موروثاً ثقافياً علمياً ولغوياً، قوياً ومزدهراً، وذلك بفضل قوة جذوره ودوحته الطيبة المباركة التي أعطت ثمارها.

^(١٢) عندما تحكى العربية، مرجع سابق، ص ٨.

^(١٣) مجلة الدراسات اللغوية، العدد ١٤٦ - ١٤٦ - ١٤ شعبان نوفمبر ١٩٩٩م، ص ٤٦.

المبحث الثاني

خصائص اللغة العربية في القصيدة

إن عملية الترميز مظهر أصيل، من مظاهر التفكير الإنساني الذي يميل إلى إضفاء السمة الكلية على الجزء المحدود من الظواهر والوقائع والأشياء، ويتبادل ذلك النشاط العقلي تبعاً لتطور الوعي الإنساني، وعمق رؤيته للعالم، ولعل هذه الحقيقة هي التي تفسر صيرورة الشعر وتحولاته من الناحيتين البنائية والدلالية.

ومن هنا نلاحظ ميل شعراء الحداثة العربية التي بلورت ملامحها حركة الشعر الحر، إلى استثمار طاقات الرموز الدلالية والجمالية للتعبير عن رؤيتهم الحضارية وما يعاني عصرهم من قلق وجودي، وهموم إنسانية كبرى، وقضايا اجتماعية معقدة.

وتعد الأساليب التي تناول بها الشاعر عبد القادر محمد أبيه قضية اللغة العربية في تشاد، والتي تعد من القضايا الماثلة، ذات أبعاد كثيرة، سياسية وأبعاد اجتماعية وأبعاد دينية، وأبعاد عرقية قبلية، كما أنها صارت محوراً للانقسامات الداخلية في لحمة الوطن التشادي الذي أصبح قضية الثقافة في تشاد.

ومن خلال هذا السبح الثقيل الجاثم في صدر المجتمع التشادي منذ أن عرف المستعمر الفرنسي الأساليب النابعة في تفكك المجتمع التشادي، التي تعد مسألة الدين واللغة من أهم العوامل التي تفرض معالم التمايز بين الأصالة والهوية التشادية المتمثلة في الدين الإسلامي والثقافة العربية، وكل المعطيات النابعة منها، وبين محاولات المستعمر في فرض الاستيعاب، ومسح الثقافة التشادية، وفرض الديانة النصرانية واللغة الفرنسية على المجتمع التشادي، وعليه فإن هذه المعضلة التي أثرت كثيراً في إمكانية صناعة أمة واحدة منسجمة، منذ الاستغلال، ومازالت حاجزاً وسداً بين إمكانية بناء أمة حقيقية، في الأرض التي مازالت مقسمة بين الاعتناء بالتراث الثقافي، من ناحية، واعتماد التيارات الثقافية الغربية المفروضة عليه من ناحية أخرى.

وانطلاقاً من ذلك، فإن الفرد التشادي، مدفوع بقوة قناعته الداخلية، بالدعوة إلى ما يرى فيه مصلحة البلاد والعباد، وبناء أمة ذات شخصية متميزة، وجذور حضارية ثقافية عميقة، وثقافة تتفق مع الاستعدادات الفطرية الطبيعية للإنسان المفطور على الخير والخيرية.

ومن خلال قصيدة (عند ما تحكي العربية) تمكن الشاعر عبد القادر من توظيف الرموز ذات الدلالة الكلية التي تعبر عن وحدة الروح الإنسانية المطلقة في نزوعها إلى الحرية والخير والجمال وتكشف عن الجوهر العقلي المتناهي في توقه إلى اللامتناهي). وقد عمد الشاعر إلى أعمال فكره الذاتي، وازمته الاجتماعية، وقضيته الوطنية، ورؤاه الباطنية التي تستمد مقومات معاييرها الإيجابية من النزعة الخيرية للإنسان ودوره في تجسيد الخير، الذي يسعى الشاعر إلى تعميمه في المجتمع، من أجل أن يصل إلى مكانة السعادة الإنسانية والسلام، وهذا ما جعله يركز على تشكيل بناء شعري ليكون اثتلافاً عضوياً أو انصهاراً عميقاً بين بنية الخطاب الشعري اللغوية والدلالية.

وقد جسدت القصيدة في بنيتها النصية، جسدت الحداثة وهذا ما جعلها ذات قيمة فنية وجمالية، إضافة إلى قيمتها التاريخية، في إطار القضية التي تتناولها، والتي تنعكس من خلالها، ملامح الفرد التشادي، الذي تغمره وتهيمن عليه الطاقات التمييزية، والدعامة الثابتة في احتضانه للثقافة العربية، التي يرى فيها ذاته الداخلية، وإيمانه الفطري، وقيمه الإنسانية، وطموحه وتطلعاته إلى ذلك المجتمع المثالي في حدوده الإنسانية النسبية، ذلك لما تشمل عليه اللغة العربية من خصائص وسمات، هي بحد ذاتها بوصلة الذات العاشقة لها في الدروب المتشابكة في هذه الحضارة المستلبة، نحو واحات السعادة والسلام، والأمن والإيمان.

وعلى الرغم من هذه الأبعاد الكثيرة، والقضايا المركبة، إلا أن النص الشعري في سياقاته يعكس موقف الشاعر وذاته المرتبطة فطرياً وفكرياً وثقافياً واجتماعياً ووطنياً باللغة العربية، ولعله يرى في ذلك تحقيقاً للذات، ومعنى للوجود واتحاداً للأمة، وتحديداً لدروب السير نحو آفاق مستقبل مشرق وواعد، وغدٍ مجيد، زاخر بالسعادة والسلام، وحافظاً للهوية والأصالة، وإضفاء بعداً إنسانياً في عصر سلب الإنسانية من الإنسان ورمي به في أو حال البهيمية.

ويعكس كل ذلك تشبع الذات الشاعرة، باللغة العربية وجمالها البنيوي والدلالي، وعفتها المعنوية في معانيها التي تراعي شخصية الإنسان، وكأنها- أي اللغة العربية-

غادة في خدرها، يغمرها الحياء، ويلجمها الخجل. فلا تقول إلا ما يلامس الحشمة والعفة والحياء، الفطري في الإنسان.

ولعل القصيدة تعكس مكانة اللغة العربية في الشخص التشادي الذي هو بمثابة فرد عربي نفته الجغرافيا إلى إذعان أفريقيا، فهو يعكس جسدياً انتماءً أفريقيًا، وروحياً عقيدة إسلامية، وفكرياً لساناً عربياً غير ذي عوج.

ومن خلال النص يتجلى لنا أن اللغة العربية في محاولات الشاعر على تصوير العمق والمدى الذي بلغته اللغة العربية في الذات التشادية، وإنها أصبحت لباساً يحتويه ويغمره فصارت هي التي تتحدث عن نفسها، بلسان الذات الشاعرة المغمورة في لب جوهر اللغات الإنسانية، فعملية الاستقراء التي اعتمدها الشاعر، تعكس مستوى تغلغل اللغة العربية في الذات الإنسانية. وقد لجأ الشاعر إلى عنصر التماهي - كما في الصوفية، حيث أن اللغة العربية قد حلت به، فهو ينطق بلسانها وهي تحكي عن حالها، وخير الأحكام ما صدر عن الذات في حكمها على نفسها.

وعلى الرغم من الطاقة المستنفرة والأساليب المعتمدة في القصيدة، ووضوح الرؤيا الإبداعية، للشاعر عبد القادر محمد أبيه وشمول تناول، وعمق الوعي الإنساني، الذي يزرع به النص الشعري، والفنيات السياقية التي وظفها الشاعر، إلا أن ذلك لا يعدو كونه وعياً مأساوياً تاريخياً، مهزوماً ما هو إلا مجرد تصوير وعكس الواقع المجيد من ناحية في شق ضئيل منه، ومن ناحية أخرى رفض وتمرد، وإنكار، وعملية استنفار للعزائم والههم البائسة القانطة، أمام هذا التحدي الكبير. الذي يصور مسارات اللغة العربية، نحو مرايع المجد والعز والتغيير، الذي يرتبط به مصير الأمة التشادية، والوطن التشادي إلى حد خطير.

وقد بدأ الشاعر قصيدته، بتحديد المنطقة الجغرافية التي شهدت ظهور اللغة العربية، وكأنه يعكس بذلك أن الحدود الجغرافية والمسافات الطويلة والقارات المختلفة، لا يمكن أن تصير سدوداً أمام التأثير اللغوي، إذا كانت اللغة تحمل في طياتها قيماً نبيلة، وأدباً بديعاً، إضافة وعاءٍ يحتوي على جوهر الدين الحنيف، الذي هو المعيار الحقيقي لكيونة الإنسان عبر الأزمنة والدهور.

ولذلك استهل الشاعر قصيدته، برسم المعالم الجغرافية واستدعاء المدن والقرى،
والوحدات التي كانت مرتعاً لهذه اللغة فيقول^(١٤):

رَتَعْتُ لِمُدَّةِ أَرْمَانَ
بِأَرْضِ جَزِيرَةِ الْقَحْطَانِ
تِهَامَةَ يَثْرِبِ نَجْرَانَ
بِنَجْدِ الْعَرَبِ يَا إِنْسَانَ
بِمَكَّةَ فِي بَنِي عَدْنَانَ

فالمجال الجغرافي للغة العربية، هو الجزيرة العربية، وهو موئل القحطانيين وغيرهم
من العرب، وقد ذكر الشاعر بعضاً من المدائن والقرى والداكر التي عاش فيها العرب
الأوائل، مثل تهامة- ويثرب- ونجران- ومكة التي عاش فيها العدنانيون وهم بطن من
بطون قريش.

ثم تطرق إلى العوامل التي ساعدت على توحيد اللسان العربي في لهجة واحدة
جامعة لجميع اللهجات القبلية لتكون النموذج الأمثل والأوحد والوجه البارز والغالب للغة.
يقول الشاعر عبد القادر^(١٥):

وَحَجَّ الْبَيْتِ كَانَ ضَمَانَ
تَجَلَّتْ حِكْمَةُ الرَّحْمَانَ
فصرت وسيلة العربان.

وموسم الحج إبان الجاهلية، كان من أهم العوامل التي أسهمت في توحيد اللهجات،
وصار هذا العامل، هو السبب في تغلب لهجة قريش، على اللهجات الأخرى، لأن
العرب الوافدة إلى حج البيت لزاماً عليها النطق بلهجة قريش، لأنها كانت قوة اقتصادية،
تمثل مدنية راقية في حينها، مما جعل مستوى تأثيرها قويا.
وبذلك صارت لهجة قريش وسيلة للتواصل والمعاملة بين جميع العرب.

^(١٤) عندما تحكى العربية، مرجع سبق ذكره، ص ٣.

^(١٥) عندما تحكى العربية، مرجع سبق ذكره، ص ٣.

ولذلك تجلت حكمة الله سبحانه وتعالى الذي شاء بإرادته الفاعلة، على بسط عناصر التمهيد، من أجل تمهيد الأسباب، لنزول الإسلام، وبعثة النبي عليه الصلاة والسلام. يقول الشاعر^(١٦):

وَشَاءَ تَبَارَكَ الرَّحْمَنُ
بِنَشْرِ السُّورِ فِي الْأَرْكَانِ
وَطَمْسِ عِبَادَةِ الْأَوْثَانِ
فَأَنْزَلَ نَاسِخَ الْأَدْيَانِ
وَأَرْسَلَ مِنْ بَنِي عَدْنَانَ
نَبِيًّا سَاطِعَ الْبُرْهَانَ
تَلَايَئُهَا الْإِنْسَانَ
تَقَدَّمَ جَاءَكَ الْإِيمَانَ
بِلَفْظٍ مُعْجَزٍ وَبَيَانَ.
فَكُنْتُ ذَلِكَ اللِّسَانَ

وعندما اكتملت أركان دعائم بناء اللغة، وبسطت قوتها وتكشفت جوانب خفاياها البيانية والجمالية والدلالية وتحددت معايير معجمها الريح الواسع العميق، وصارت أداة تعكس المدركات المحسوسة، والأفكار المعنوية، حتى إذا وصلت إلى مستوى يؤهلها لتكون وعاءاً للدين، ووسيلة لنقل اليقين، أرسل الله نبيه محمد صلى الله عليه وسلم، وأيده بكتاب ضم في حناياه اللغة العربية بكل بيانها وجمالها وإعجازها، ودلالاتها فتمكنت اللغة العربية، بإرادة الله سبحانه وتعالى، من حمل الرسالة المحمدية، ونشرها بمفرداتها الغنية الثرية على سائر البشرية، يقول الشاعر^(١٧):

فَكُنْتُ ذَلِكَ اللِّسَانَ
بِنَصِّ جَاءَ فِي الْقُرْآنِ
فَصِرْتُ قَرِينَةَ الْإِيمَانَ

^(١٦) المرجع نفسه، ص ٤.

^(١٧) عندما تحكى العربية، مرجع سبق ذكره، ص ٤.

وأخذت العربية تعد مآثر قوتها، وتذكر أدوارها في خدمة الدين في مختلف الميادين، ومن ذلك ميدان التعليم الديني، الذي يكسب الإنسان المعرفة التي لا تتم العبادة إلا بها، وهذه المعرفة لا تتأتى إلا بالتعليم، واكتساب الأسس اللازمة والصحيحة من أجل إقامة الشعائر الدينية بطرق صحيحة.

وبالتعليم والدين، يتمكن الفرد من معرفة أركان العبادة والأوضاع التي يكون فيها العبد قريباً من ربه، لذلك يقول؛ (في مسجد أو جبهة قد لامست سجادة).

فقوله مسجد- إشارة إلى صلاة الجماعة، وتعمير بيوت الله. وجبهة قد لامست سجادة- كناية عن السجود.
يقول^(١٨):

وكنتُ عدة حسان في جهاده

وكنتُ صوت هذا الدين في أمجاده

فاللغة العربية، تمتاز بانها لغة الشعر، وكان الجهاد في الإسلام بالسيف وبالكمة، وكان شعراء الإسلام مثل حسان بن ثابت وعبد الله بن رواحه، وغيرهما يجاهدون بالكمة، فكانت اللغة العربية، هي عدة حسان في جهاده وردوده عن الإسلام والرسول والصحابة، وكما كان الله سبحانه وتعالى يمد الرسول صلى الله عليه وسلم والمجاهدين، بالملائكة فإن حسان بن ثابت، كان يدعمه جبريل عليه السلام بالطاقة الإبداعية والعبارات المناسبة، لقول البيان ونظم القريض وإفحام شعراء المشركين.

ويقول الشاعر - متقمصاً حال اللغة العربية^(١٩):

صَدَى وَيَجِيبُ النَّاسَ مَا دَعَتْ عِبَادَهُ

وَصُوتُ تَوْحِيدِ الْإِلَهِ كَأَنْ بِي تَزْدَادُهُ

لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ رَدَّ الزِّيَادَةَ

^(١٨) المرجع نفسه، ص ٥.

^(١٩) عندما تحكى العربية، مرجع سبق ذكره، ص ٥.

محمّدُ رسوْلُهُ إلى عِبَادِهِ
صَلَّى عَلَيْهِ اللهُ سَرْمَدًا وَزَادَهُ
بِبَعْثِهِ عَلَى الْمَقَامِ نَمَّ الْحَوْضِ وَارْتِيَادَهُ

وهذا ما رفع سمات اللغة العربية، إنها صوت اليقين ووعاء الدين، وحملة كلام رب العالمين.

والعربية بهذا الوصف والمكانة- هي الهدية التي تعين الإنسان إلى الهداية، وإنها وسيلة وغاية.

ومن أهم خصائصها كما يذكر الشاعر:

مَنْ غَيْرِي مِنَ اللُّغَاتِ
حَوَى فِي صَوْتِهِ غُنَّةً
فَصَاحَتْ لَفْظِي الْمَقْرُوءُ
كَمْ تَبْدُو لَهُ رِئَةً
تَعَلَّمَنِي تَعَلَّمَنِي
فِإِنِّي لُغَةُ الْجَنَّةِ
وَلُغَةُ خَاتَمِ الرُّسُلِ
حَوَيْتِ الدِّينَ وَالْفَنَّ
إِنَّ الدِّينَ يَحْوِينِي
كِتَابَ اللهِ وَالسُّنَّةَ

فالعربية تمتاز بأنها تحتوي على أصوات لا مثل ولا معادل لها في اللغات البشرية، ولذلك تسمى لغة الضاد، وتمتاز بأنها تحتوي على أصوات تعكس الغنة، وعلى عبارات وألفاظ تنتشر منها ألحان وأنغام ورنه.

وإنها كما وردت في الأثر لغة الجنة، وإنها اللغة التي تحدث بها النبي صلى الله عليه وسلم، وإنها لغة تحوي وتضم كل من تحدث بها، فهي ليست جنس ولا عرف ولا قبيلة، ولكنها لسان، فهي عامل من عوامل تفكيك وإزالة سدود القبيلة، والتفرقة والعنصرية، وبذلك تكون الخصائص التي تشتمل عليها اللغة العربية، خصائص متفردة،

ولا تنطبق على غيرها من اللغات البشرية، التي تعكس وتحدد القوميات والإثنيات والقبليات.

ولأجل أن اللغة العربية لغة جميع بني البشر كان الدين الذي تعكسه ديناً شاملاً وعماماً مصداقاً لقول الحق تبارك وتعالى {وما أرسلناك إلا كافة للناس} (٢٠) ولهذه السمات والمميزات والأسرار التي تتميز بها اللغة العربية، تكون المجتمعات التي انتشرت فيها اللغة العربية مجتمعات حظيت بغاية الله ورحمته التي وسعت كل شيء، ومن المفترض أن يكون ذلك، نبراساً فكرياً وثقافياً، ودينياً، يرشد المجتمع إلى سبل السلام والنجاة.

الخاتمة:

قصيدة (عندما تحكى العربية)، من أبرز النصوص الشعرية العربية في الأدب التشادي المعاصر، والتي تعكس مكانة اللغة العربية من حيث الانتشار والترسيخ في المجتمع التشادي، وأن اللغة في حقيقتها نشاط إنساني خلاق، ولعل الاستخدام الشعري لها، هو أقرب الاستخدامات إلى طبيعتها، وانعكاساً لمميزاتها وكشفاً عن إمكاناتها الإبداعية.

والشعر ليس مجرد سياق زاخر بالإيقاع والموسيقى فحسب، بل هو إبداع لغوي، وهنا تكمن ماهية الشعر الخلاقة التي تعيد بناء العالم من وجهة نظر ذاتية، وتستمد مقومات بنائها من الهواجس الداخلية التي تعمل في وجدان الشاعر. نتيجة الواقع المحسوس الذي يعج بما يغص سرديات الحقيقة والخير والجمال. ومن هنا تنطلق التجربة الشعرية قوية، لابساً ثوب اللغة القشيب، لتعكس الأفكار الذاتية للشاعر، في تعامله مع الواقع الذي لا يتطابق مع قناعاته الذاتية، ورؤاه الداخلية فيحاول من خلال اللغة الشاعرة، على إحداث تغيير، ولو بصورة تقريبية، على الواقع المعاش، والذي يتنافى مع المثل والفضيلة والحقيقة والجمال.

وهذا ما أدى إلى تناول الشاعر عبد القادر واقع اللغة العربية في مجتمعه، الذي عرف اللغة العربية من باكورة تاريخ ظهوره، وصارت سبباً في ارتقائه ونهضته ومن

(٢٠) سورة سبأ الآية: ٢٨.

خلالها، عرف ثقافته وعزته، وإذا به يرتد عن ذلك كله ليتنكر لأهله وللعوامل التي ارتقت به إلى قمة الإنسانية.

وتاريخ اللغة العربية، دليل على واقعها وماضيها وحاضرها.

وقد تعرض الباحث لجزء من القصيدة، من منطلق فصل واحد ومبحثين اثنين، وعليه فقد توصلت الدراسة إلى النتائج التالية:-

(١) قصيدة عندما تحكى اللغة العربية، انعكاس لشعر الحدائث في الأدب التشادي المعاصر.

(٢) تعكس القصيدة الأبعاد الفنية والإبداعية والجمالية والآفاق المعرفية التي يتحلى بها الشاعر.

(٣) رسمت القصيدة مسافات اللغة العربية تاريخياً في هذا الإقليم الواقع جنوب الصحراء الكبرى من القارة الأفريقية الذي يسمى تشاد.

(٤) أسهمت اللغة العربية في نهضة وازدهار الممالك الإسلامية التشادية القديمة.

(٥) من أهم العوامل التي رسخت العربية في المجتمع التشادي، الدين الإسلامي وانتشاره.

(٦) ساعد انتشار الدين الإسلامي على نشر التعليم الديني والعربي في تشاد قديماً.

(٧) المجتمع التشادي القديم عبر الممالك الإسلامية التي عرفتها المنطقة امتاز بثقافته العربية.

(٨) كانت اللغة العربية، هي العنصر الذي ساعد على صناعة الأمة ووحدتها عبر الدين الإسلامي واللسان العربي.

(٩) الخصائص المميزة للغة العربية، في طبيعتها كلغة وقيمتها كتقافة، وقدسيته كدين، ساعد على ثباتها وانتشارها في الأوساط التشادية.

(١٠) تعد قصيدة عندما تحكى العربية، تاريخاً، ورفضاً وتمرداً على الواقع الاجتماعي وموقفه من اللغة الفرنسية.

(١١) تعكس القصيدة موقف الشاعر من قضية اللغة العربية في بلاده.

(١٢) تمكن الشاعر من تأطير واقع اللغة العربية في الأمس واليوم، والإرهاصات المستقبلية لحاضرها.

المصادر والمراجع:

- ١) د. عبد الله مصطفى، مختارات من الأدب التشادي باللغة العربية تجمع الكتاب التشاديين، انجمينا ٢٠٠٩م، ص ١٢.
- ٢) د. فضل كلود الدكو، الثقافة الإسلامية في تشاد في العصر الذهبي في لإمبراطورية كانم، منشورات كلية الدعوة الإسلامية ط، ط١، ١٩٨٨م، ص ١٢٢.
- ٣) تأثير الفصحى على لهجة شاري باقرمي، بحث لنيل درجة التمكن، جامعة انجمينا، إعداد هارون عبد الله أحمد، ص ١٢.
- ٤) المجلة العربية للدراسات اللغوية، ص ١٧٧. العدد ٤٦، ١ نوفمبر ١٩٩٩م علم اللغة.
5) Gouille, Ail islam Sans L'frisque Occidental Française. P.430 Paris 1952.
- ٦) ياقوت الحموي، معجم البلدان، المكتبة العلمية- بيروت- لبنان، ط١، ص ٤٩٠.
- ٧) محمد بن شريفة، إبراهيم الكانمي أنموذج التواصل الثقافي بين المغرب وبلاد السودان- الرباط، ص ١٧.
- ٨) عندما تحكى العربية، عبد القادر محمد أبه، طباعة تشاد جرافيك للطباعة والنشر والتوزيع، ٢٠١٥م، ص ٨.
- ٩) د. عبد الواحد وافي، اللغة والمجتمع، مطابع سحر، ١٩٨٣م، ص ٨٧.
- ١٠) د. عبد الله عبد الحميد، د. عبد الله علي مصطفى، مطابع الوحدة العربية الزاوية، ط١، ١٩٩٣م، ص ٨٤.
- ١١) مجلة الدراسات اللغوية، العدد ١٤٦- ١٤ شعبان نوفمبر ١٩٩٩م، ص ٤٦.